

أحمد إدريس | Ahmed Idrees \*

## في معنى الأرض: استعادة الذات الفلسطينية

### On the Meaning of Land: Restoring the Palestinian Self

عنوان الكتاب: في معنى الأرض: استعادة الذات الفلسطينية.

المؤلف: بلال عوض سلامة.

الناشر: الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

سنة النشر: 2021.

عدد الصفحات: 207.

\* باحث. حاصل على الماجستير في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا من معهد الدوحة للدراسات العليا.

Researcher. He Holds a Master's Degree in Sociology and Anthropology from the Doha Institute for Graduate Studies.

Email: [aha013@dohainstitute.edu.qa](mailto:aha013@dohainstitute.edu.qa)

## مقدمة

من خلال المنظور الديكولوجونيالي، ومنظور نقد النيولبرالية في السيطرة والهندسة الاجتماعية. لذا يُدرج الكتاب ممارسات السيطرة والمقاومة التي تكون الأرض والعلاقة بها موضوعها، ضمن نظام كلي من السيطرة الاستعمارية. ويبنى المؤلف نظرياً على أطروحات كل من فرانتز فانون Frantz Fanon وميلاني كلاين Melanie Klein وأشيل ميمبي Achille Mbembe حول ديناميات السيطرة والمقاومة في السياق الاستعماري والنيولبرالي، إضافةً إلى الاستئناس بمدخلات "الموت الاجتماعي" كما طورها ميمبي ومالكوم إكس Malcolm X (ص 9).

يعالج الكتاب "قضية الأرض بوصفها قيمة معنوية ومادية للفلسطيني التي تحقق الكرامة له وتضمنها" (ص 10). ويُبين تمثاتها لدى الناس بوصفها قيمة، سواءً لذاتها (رمزية)، أو لقيمتها النفعية (مادية)؛ أي وسيلة إنتاج يقوم عليها وجود الجماعة الفلسطينية وإعادة إنتاجها لذاتها، مع إضافة أن هذا التمثل محمول على سياق النظام الاستعماري وعلاقاته. ويحاجّ المؤلف بأنّه لا يمكن اعتبار السيطرة الاستعمارية على الأرض ممارساتٍ سلطوية مادية هدفها الأرض في ذاتها فحسب، بل هي استراتيجيات وتقنيات تستهدف السيطرة على الفلسطيني إنساناً في المقام الأول، والسيطرة على الأرض بوصفها قيمةً ومقوم إنتاج مادي أيضاً.

## أولاً: الأرض قيمةً في السياق الاستعماري

يمثل مفهوم الأرض لدى المستعمر والمستعمّر، ثم مقولة العلاقة الوجودية بالأرض لدى الفلسطيني، محوراً مركزياً، تتشابك حوله جميع المداخلات

تعدّ الأدبيات التي تناولت موضوع الأرض نادرةً في السياق العربي، وفي حقل السوسولوجيا خاصةً، باستثناء السياق الفلسطيني باعتباره سياقاً استعماريًا استيطانيًا، تمثل الأرض فيه عاملاً محوريًا في تشكيل العلاقات الاجتماعية على المستويات كافة. يأتي في هذا الصدد كتاب في معنى الأرض: استعادة الذات الفلسطينية الذي يعالجُ سوسولوجيًا موضوعة الأرض بوصفها ظاهرةً كلية، ينسج المؤلف حولها كامل المتغيرات التي تركب ظاهرة الصراع الاستعماري في فلسطين.

"فتاريخ المقاومة والصراع وبداية الفعل الوطني - وإن كان عفويًا - بدأ بأول احتجاج للفلاحين ومقاومتهم الأطماع الصهيونية في عام 1886 [...] الفلاح الفلسطيني أول المبادرين إلى مقاومة المشروعات والسياسات الصهيونية الهادفة إلى سلب الأرض من أصحابها، لما تشكّله من خطورة على مصيره ووجوده، ومن تساؤل حقيقي حولهما" (ص 8-9). يمكن قراءة هذا الاقتباس على أنه محاولة المؤلف تأطير موضوعه ضمن حقل دراسات المجتمع الفلاحي<sup>(1)</sup>، وذلك بالتركيز على تمثلات الأرض وارتباطها بخصوصيتها في سياق استعماري. ويوظف المؤلف إطاراً نظرياً يقوم بالأساس على الإرث الفكري الديكولوجونيالي لمقاربة موضوع الأرض ضمن السياق الاستعماري الصهيوني، باعتباره سياقاً نيولبراليًا يمكن قراءته قراءةً مركبةً وكليّةً،

(1) يمثل المجتمع الفلاحي مبحثًا في السوسولوجيا الريفية. ينظر مثلاً:

Teodor Shanin, "Peasantry: Delineation of a Sociological Concept and a Field of Study," *European Journal of Sociology*, vol. 12, no. 2 (1971), pp. 389-300.

السكاني والمخيمات في الحالة الثانية تمظهرًا لمنطق واحد في فصل علاقة السكان الأصليين بالأرض (ص 22)، وإغائها بصفتها حاملة للهوية والانتماء، بغرض تطويع هؤلاء السكان بيوسياسيًا وتحويلهم إلى ذوات لاسياسية بالمفهوم الفوكوي (نسبةً إلى ميشيل فوكو Michel Foucault).

### 1. بالنسبة إلى المستعمر

يبني المؤلف مداخلته في الفصل الأول الذي يهدف فيه إلى تبيان معنى الأرض وقيمتها للمستعمر، إلى حد بعيد، على الطرح الذي قدّمه فانون حول قيمة الأرض ووظيفتها في علاقة المستعمر بالمستعمر، وذلك من خلال رد الأرض إلى قلب التفكير القيمي بربطها بالعمل بوصفها قيمة، لا يستهدف المستعمر نفسها لدى المستعمرين بصفتها وسيلة إنتاج مادية فحسب، إنما أيضًا ليدخل فعل الاستيلاء بوصفه بنية نفسية إلى الكيان الاجتماعي والنفسي لديهم، "فاحتلال الأرض يتزامن مع احتلال عقول المستعمرين وأجسادهم" (ص 17). وهنا يقابل المؤلف بين مفهوم فانون للأرض والمفهوم الماركسي الذي يوضعها ماديًا بوصفها وسيلة إنتاج، باعتبار أن فانون يضيف إلى الأرض قيمة تربطها بالحياة والوجود، وذلك تأسيسًا على العلاقة الشعورية بين الفلاح والأرض. ومن ثم، يسحب المؤلف الأرض، بمعنيّة فانون، إلى قلب البنية الفوقية للمستعمرات. ومن خلال المقابلة بين هذين المفهومين، ينحاز المؤلف إلى الهدف الذي أعلنه في مقدمة بحثه، بتركيزه على أشكلة تستوعب المقاربة المادية المحضّة لموضوعة الأرض، وتتجاوزها في آن، وتتجه نحو التفكير في الأرض موضوعًا لممارسات الحداثة/الاستعمار ضمن المقاربة الديكولوجية. ويظهر هذا الاتجاه

الفرعية المؤلفة لأطروحة الكتاب (كما يتبين لاحقًا)، والمتمثلة في إعادة طرح الأرض بصفتها قيمة رمزية في الصراع الاستعماري في السياق الفلسطيني. يعلّق المؤلف أمر علاقات الأرض في السياق الاستعماري في فلسطين على الفجوة بين المفهوم القانوني للأرض، القائم على وثائق الملكية والحيازة من جانب المستعمر الإسرائيلي، والمفهوم الوجودي لدى الفلسطينيين، الذي لم يضطّهرهم إلى إثبات موقف قانوني في علاقتهم بالأرض، فهي في كيانيتهم الجماعية والعلاقة بها تسري في عصبونات الوعي الجمعي للفلاحين الفلسطينيين. وهذا الموقف من قوة الشعور بالأرض، والارتباط بها وجوديًا، هو ما سيختزن على السواء حياة الفلسطيني وموته. وهذا النبض بالأرض هو ما سيمثل هدف سياسات السيطرة وممارساتها في المنطق الاستعماري الإسرائيلي، وحقلاً لتطبيق سياسات "عقيدة الصدمة" التي طوّرتها نعومي كلاين Naomi Klein لفهم منطق الرأسمالية النيوليبرالية في إخضاع الشعوب، واستعارها المؤلف لفهم منطق الاستعمار الإسرائيلي في كثافة الجرائم والمجازر والسلب ونهب الأراضي واستيطانها، باعتبارها حالة من فرض واقع الصدمة في الوجود والمصير لدى الفلسطيني، بهدف خلق استلاب في مفهوم الذات والذاكرة والثقافة المرتبطة بالأرض؛ بغية تسهيل هندسته اجتماعيًا، بالتركيز على سياسات الأرض وإعادة ترتيبها وامتلاكها والسيطرة عليها (ص 20). وهنا يؤسس المؤلف مقارنة، يمكن قراءتها بصفتها محاولة متبصرة، بين ممارسات التنظيم الفضائي في كل من الجزائر وفلسطين بصفتها سياقات استعمارية. وذلك من خلال قراءة استراتيجيات المحتشدات في الأولى، وسياسات التجزئة الاستعمارية والتركيز

وممارسات يومية لدى المجتمع الفلسطيني، حول الأرض، وذلك "اعتماداً على مقولة إن البنية الفوقية هي تعبير مكثف لمنط الإنتاج" (ص 29). ويدفع في ذلك ادعاءً تاريخياً مفاده أن هذه العلاقة التشكيلية بين الأرض والبنية الفوقية في السياق الفلسطيني تمتد من العهد العثماني حتى التطهير العرقي في عام 1948. لكنه لا يسوّغ لنا هذا "الاعتماد" تحليلياً، ولا يعكس لنا كيف يمكن أن يتكامل هذا التمسّي النظري في الطريق التي شقّتها الماركسية ضمن المنظور التحرري الذي تبناه في إعادة موضعة الأرض بصفقتها قيمةً في ذاتها.

من أجل بناء المؤلف حجته التي قدّمها استناداً إلى الزاد الماركسي، فإنه يعيد قراءة أشكال التنظيم الاجتماعي في السياق الفلسطيني باعتبارها أشكالاً تقوم بنويًا على العلاقة مع الأرض، وتتراوح بين العشائرية وشبه الإقطاعية، بنمط إنتاج زراعي شبه إقطاعي وأساليب عيش فلاّحية<sup>(3)</sup>. وإذا كانت هذه الممارسات الاقتصادية تمثل دورة متكاملة، فإنها تتطلب أيضاً وحدة إنتاج ممثلة في العائلة بصفقتها قوة منتجة، يحدوها الاكتفاء الذاتي والأمن الغذائي، حتى تنغرز في البنية الفلاّحية للثقافة الفلسطينية التي سيحاول المؤلف بناء ادعاءً جريء حولها. وكل هذه العناصر (العائلة بصفقتها وحدة إنتاج والممارسات الاقتصادية ومبدأ الدورة) "مرتبطة بالأرض وبمحصولها كحلقة متكاملة يعتمد بعضها على بعض" (ص 30). ويهدف المؤلف من هذا الربط المادي بين الأرض وحياة الفلاح إلى تجذير المعنى الرمزي والكثيف الذي بناه للأرض بالنسبة إلى الفلسطيني.

(3) تدور حول الفلاحة وجملة الممارسات المرتبطة بها كإنتاج الألبان والأجبان والأسمدة وتربية الحيوانات.

لدى المؤلف في تمييزه موقف فانون تجاه قيمة العلاقة بين الفلاح والأرض، القائمة على شيء من التداوت؛ فهي تبادلية متكافئة تقوم فيها الأرض ذاتاً تغدّي هوية الفلاح، ف"الفلاح حين يعمل في الأرض يأخذ الحياة منها، ويعيدها إليها ... لتعيدها إليه"، بينما نجد المستعمر الرأسمالي "يحول الأرض سلعة تجارية تستنزف مقومات الحياة فيها" (ص 17). وهو ما يفسر به المؤلف الطبيعة الرأسمالية الاستعمارية للحركة الصهيونية؛ كون بداية دخولها إلى فلسطين كان من بوابة المسألة الزراعية عبر الجمعيات والشركات العاملة في مجال الاستثمار الزراعي.

## 2. بالنسبة إلى المستعمر/ الفلسطيني

يهدف الفصل الثاني "الأرض الفلسطينية كقيمة ووجود" إلى الانشغال بموضوع التمثّل القيمي للأرض، ضمن جهاز القيم الفلسطيني، وليس بالنسبة إلى الاستعمار الإسرائيلي<sup>(2)</sup>. يحشد المؤلف كل الدلالات الثقافية التي تكثف قيمة الأرض رمزياً، وذلك بالرجوع إلى المنجز الثقافي الشعبي وميثولوجيا الأرض في فلسطين، من قبيل احمرار الأرض لارتوائها بدماء الشهداء، وارتباط الأرض في المخيال الفلسطيني بالزيتون رمزاً للمقاومة. ثمّ يحاول المؤلف موقعة كل مركبات البنية الفوقية، من علاقات اجتماعية وأنظمة ثقافية

(2) على الرغم من المسافة البينة التي اتخذها المؤلف من التحليل المادي الماركسي عند التأطير النظري لموضوع بحثه، فإنه يعود فيقرأ قيمة الأرض ووجودها للفلسطيني انطلاقاً من مدخل ماركسي، وإن لم يستدع في ذلك المدونة الماركسية بوضوح، ويُمكن قراءة ذلك في سياق تأطير المؤلف مختلف المداخل النظرية التي يؤسس عليها المداخلات الفرعية (نظرية عقيدة الصدمة لنعمي كلاين مثلاً) ضمن إطار أشمل يعتبره المنظور الذي يستهدي به في توظيف مختلف المقولات النظرية.

## ثانياً: سيطرة على الإنسان عبر السيطرة على الأرض

في العلاقات الاستعمارية<sup>(5)</sup>، وعلاقة كل ذلك بهوية الفلسطيني وعناصرها الواقعية والتمثيلية. تتشابك تلك الخيوط الاستعمارية كافة، لتتسح مشهداً فلسطينياً يقوم على الهندسة الاجتماعية التي يصنّفها المؤلف في أربعة مستويات متشابهة: هندسة مكانية تستهدف السيطرة على الأرض عبر قوانين الأراضي والسياسات الحدودية والتقسيم الجغرافي؛ واقتصادية تسيطر على أدوات وقوة الإنتاج الزراعية والصناعية والسوق؛ وسياسية تقوم على نظام عنصري من الديمقراطية الإثنية؛ وهندسة بيوسياسية تعكس السيادة الاستعمارية على الجسد الفلسطيني وضبطه. وفي واقع الأمر، لا يأتي المؤلف في ما سبق بطرح جديد، سوى قراءة ما توافر من أدبيات فلسطينية أُجزت عن هذه الأنماط من الهندسة الاجتماعية. بينما تتمثل مساهمة المؤلف الأساسية في مفهومة سياسات الهندسة الاجتماعية هذه، حيث تمثل، إلى جانب المعنى للأرض في السياق الاستعماري، ومفهوم المثقف الفلاح كما سيأتي، أحد أهم الأضلاع الثلاثة لمداخلته الكتاب.

يُقارب المؤلف هذه الهندسة الاجتماعية، باطلاعه على سياقات استعمارية أخرى، من خلال استعارة مفهومين؛ "المحتشدات" و"السبات الاستعماري". تشير المحتشدات إلى "أماكن الفصل الممنهج للقري والمدن والمخيمات والتجمعات الفلسطينية وعزل بعضها عن بعض" (ص 45-46)، ويشمل ذلك التجمعات السكانية في الجغرافيا الفلسطينية كافة في أراضي فلسطيني عام 1948 و1967، وسياسات التجزئة الاستعمارية الحالية بين قطاع

بعد قراءة الأرض مفهوماً وقيمةً في العلاقات الاستعمارية، يُحلّل المؤلف في الفصل الثالث السيطرة الاستعمارية على الإنسان الفلسطيني التي مورست عبر استهداف أرضه. وهنا يبيّن على مداخلته بنوية اقترحها رائف زريق، تفهم علاقات الأرض بوصفها تكتيفاً لتاريخ الصراع الاستعماري في فلسطين، امتد هذا التكتيف منذ الحقبة العثمانية، وصولاً إلى آخر نسخة من الاستعمار الصهيوني (ص 37). يبيّن المؤلف على هذه المداخلته في قراءة محطات من تاريخ ممارسات الاستعمار الصهيوني على الأرض الفلسطينية، وصولاً إلى نكبة عام 1948 التي يقرؤها بوصفها بداية التأسيس لعقيدة الصدمة ونسف العالم المألوف للفلسطيني ونظرتة إلى ذاته بغية تطويعه (ص 47).

تهدف الصدمة، في نظر المؤلف، إلى إفراغ الأرض الفلسطينية من سكانها، وهو "هدف جوهرى في عقيدة الحركة الصهيونية" (ص 44). وإذا كانت صحة هذه المقدمة تستند، لديه، إلى ممارسات تاريخية، فإن بنوية منطق السيطرة الاستعمارية قد تحوّلت، حيث يستوعب ممارسات تدجين قوة عمل السكان الذي وجد الاستعمار نفسه في حاجة إليها، شرط تدجينها ضمن النظام الاقتصادي الاستعماري عبر طائفة من ممارسات أنظمة التنقل والممارسات المكانية<sup>(4)</sup>. وما يلفت انتباه المؤلف من هذه الممارسات هو أثرها في تمثّل الأرض والمعنى الذي تفرزه للمكان من حيث هو عنصر

(5) يفرد المؤلف كتابه اللاحق لدراسة المكان ودوره في المقاومة المدنية بالتركيز على الحالة المقدسية، ينظر: بلال عوض سلامة، في معنى المكان: وحي من دروس المقاومة المقدسية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2023).

(4) وليد حباس، "الاستعمار الاستيطاني: نحو إطار نظري جديد"، قضايا إسرائيلية، مج 17، العدد 66 (تموز/ يوليو 2017)، ص 125-126.

في تشكيل قيمه - إنما "في وظيفته المجتمعية وانتمائه إلى عموم الشرائح المقهورة والمهمشة والفقيرة والفلاحين، من منطلق أن بنية فلسطين فلاحية ووسيلة الإنتاج الأساسية فيها هي الأرض" (ص 123). إذًا، فالأرض والانتماء إليها والاستعداد للتضحية وبذل الذات من أجلها، هو ما يعرف موقع المثقف الفلاح، ووظيفته ذات الطبيعة المزدوجة في نقد كل من المجتمع والنظام الاستعماري.

ولئن كان مفهوم المثقف الفلاح يقطع مع الإرث النخبوي في تعريف الثقافة والمثقف، كالاتجاهات الماركسية الكلاسيكية والليبرالية التحررية (ص 115) في اتجاهها التمثيلي للفلاح عبر المثقف المدني، فإنه يمتح من موقف واضح للمؤلف في إعادة الاعتبار للفلاح الفلسطيني في الدخول إلى دائرة الفعل وتشكيل الثقافة الشاملة للمجتمع. ويمكن أن يتساءل القارئ هنا: إلى أي حد سلم المؤلف نفسه من هذا الموقع التمثيلي في رد كل الثقافة الفلسطينية إلى الجذر الفلاحي؟ إذ يتوارى في طرح المؤلف الإرث النقدي لدراسات التابع Subaltern، على الرغم من أنه لم يخض نقاشًا صريحًا مع هذا التيار، الأمر الذي كان يمكنه إثراء المفهوم، وأثر الاشتباك مع التراث المحلي الفلسطيني ليبنى مفهومه في الأساس على مفهوم "المثقف المشتبك" الذي تطور ضمن أعمال غسان كنفاني (1936-1972)، وتجدّر عبر ممارسات نضالية لمثقفين فلسطينيين شهداء آخرين مثل باسل الأعرج (1984-2017)<sup>(6)</sup>. كما كان في إمكان

(6) يبني المؤلف ذلك بعد تبصرات معمّقة ونقدية حول شروط الفعل الاجتماعي في ضوء ما يثيره السياق الفلسطيني من تحديات نقدية على سؤال الفاعل الاجتماعي وموقعه. ينظر: بلال عوض سلامة، "الفاعل الاجتماعي: رؤية نقدية في ضوء تحديات المشهد الفلسطيني"، المستقبل العربي، مج 37، العدد 431 (كانون الثاني/يناير 2015)، ص 54.

غزة والضفة الغربية وداخل الضفة. ويتضمّن ذلك سياسة مركبة من الحشد والعزل والرقابة، نتاجها الموضوعي هو بنية اجتماعية واقتصادية هشّة للوجود الفلسطيني (ص 66). وتختزن هذه البنية لدى المؤلف تركيبًا جدليًا من البؤس والركون إلى جانب كل أسباب الثورة الخلافة للتحرر التي لن تكتمل إلا بإدراك الفلسطيني أهمية الأرض لوجوده ومصيره ومستقبله.

أما السبب الاستعماري، فيمثل محصول عمل ممارسات السيطرة في الذات الجماعية الفلسطينية، وهو موت اجتماعي فلسطيني بدرجة مخففة، وذلك حين تنفك عرى ما يعتبرها المؤلف الثلاثية المقدسة (الأرض، والتاريخ، والذاكرة)، ففقدان أحد هذه العناصر - الأرض بالنسبة إلى المؤلف هنا - سيؤدي إلى عيش الفلسطيني، ولا سيّما قواه السياسية والثقافية، "في منطقة تراوح حيا بين الفاعلية السياسية والمقاومة، وبين التآكل الذاتي وعدم الجدوى والشعور باللاقوة السياسية حيا آخر" (ص 93). هذه المنطقة هي ما يعرفها المؤلف بالسبب الاستعماري، موطئًا أطروحات الموت الاجتماعي لدى كل من أورلاندو باترسون Orlando Patterson وميمبي ومالكوم أكس (الشيخ شاباز).

### ثالثًا: فلخ الثقافة ومفهوم جديد للمثقف

بناءً على المقدمة التي ينهض عليها الكتاب، والمتمثلة في مركزية الأرض موضوعًا للصراع الاستعماري في فلسطين، يطرح المؤلف مفهوم المثقف الفلاح مساهمةً في بناء الثقافة الفلسطينية في عمومها على أساس فلاحية. ولا يتحدّد موقع هذا المثقف وتعريفه على أساس هوياتي بانتمائه إلى البنية الفلاحية - على الرغم من أهميتها

عليها. وينطلق المؤلف في ذلك من الموقف ذاته الذي أعلنه في بداية هذا الفصل حول ما يجب أن تشكل عليه الثقافة الفلسطينية في مبنائها ومضامينها القيمة الفلاحية إن ابتغت تصليب عودها النضالي. ويستند هنا إلى اتجاه تعددي مساواتي في مفهوم الثقافة، قائم على التهجين بين ثقافة النخبة المدنية وثقافة الجمهور الفلاحي، بين القيم الفردية والقيم الجماعية التي يربطها بالضرورة بالثقافة الفلاحية. ويقرأ في ضوء ذلك تقاطعات الديني والوطني والفلاحي ضمن أحداث المشهد النضالي الفلسطيني وشخصه من ثورة البراق (1929) التي ابتدراها الفلاحون حتى حركات العودة والمرابطة في هذا العقد من القرن الحادي والعشرين (ص 138-142). وعند هذه النقطة، يمكن التساؤل عن غياب النقاش المحايث - في ما وراء المقاربة مع السياق الجزائري - لما تطوّر حول علاقة الديني بالفلاحي في سياق الثورة في المشرق العربي، ولفت الانتباه إلى أهمية السياقات المشرقية ذات التركيب المتداخل مع فلسطين في علاقات الأرض وخضوعها لأنظمة الولاية العثمانية نفسها؛ مثل السياق السوري<sup>(8)</sup>.

من جهة أخرى، يقرأ المؤلف منعطفات مشهد المقاومة الاستعمارية الذي يجب تحريّ مظهره في القيم الفلاحية، من خلال الفن والأدب الفلسطيني، بوصفهما مخزونًا للذاكرة الجمعية، وميدانًا لبناء الذات والهوية الفلسطينية. وفي هذا

(8) مثل دراسة حنا بطاطو عن الفلاحين وتركيبهم الاجتماعي، ولا سيما الجزء المتعلق بالعلاقة بين الصوفية والفلاحة. ينظر: حنا بطاطو، فلاحو سورية: أبناء وجهاتهم الريفيين الأقل شأنًا وسياساتهم، ترجمة عبد الله فاضل ورائد النقشبندى (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 203-215.

المؤلف خوض نقاش مع المنجز العربي المحايث والراهن من حركة البحث حول سؤال المثقف ودوره في ضوء التحولات الجديدة في السياق العربي<sup>(7)</sup>.

لم يختلف المؤلف في طرحه عما تراكم من مقولات حول دور المثقف، بل مضى بجرأة غير مسوّعة في إسباغ مجموعة قيم تربطه جوهرانيًا بالبنية الفلاحية من دون تععيدٍ تحليلي - باستثناء مبدأ التهجين الإيجابي بين ثقافة الجمهور وثقافة النخبة، الذي يبني فيه المؤلف على ت. س. إليوت T. S. Eliot - يُجدّر هذا الربط في التراث النظري لأدبيات الدراسات الفلاحية؛ فلا يُفهم مثلاً كيف تدخل قيم الكرامة والتضحية والجسارة والبطولة و"الجدعنة" التي اعتبرها المؤلف ضرورية في مواجهة النظام الاستعماري، فضلاً عن الجمعية، جوهرياً في تركيب الثقافة الفلاحية، حيث تصلح "تجسيداً للحقيقة الوطنية" (ص 125)، وغضّ النظر عن الأرقام الأخرى للثقافة الفلسطينية المنبثقة من أنماط المعاش إلا من زاوية امتثالها لقيم الثقافة الفلاحية؛ إذ لا تكفي المؤلف أخلاقية الموقف الأيديولوجي من وراء كون هذه القيم تُعدّ ضرورةً من أجل القطع مع "السبات الاستعماري" في فعل الثورة الفلسطينية (ص 126).

يتقدم الفصل بعد ذلك، ليتناسج مع العناصر المؤلفة لمشروع الكتاب عبر تحليل تاريخي، ويجتهد المؤلف خلاله في الربط بين محطات مختلفة من مسيرة المقاومة الفلسطينية للنظام الاستعماري، وتأويلها تأويلاً يستند إلى كشف العناصر الفلاحية المغيبيّة والمهمّشة التي تنطوي

(7) ينظر مثلاً: دور المثقف في التحولات التاريخية (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017).

مداخلات نظرية أخرى، ترتبط بمشكلة البحث، وكان يمكن أن تُثريه نظرياً في معالجة المشكلة. فالاتجاه الشمولي الذي تبناه المؤلف أغفل مداخل مايكروية تركّز على العمليات الدقيقة التي تتموضع من خلالها الأرض في علاقات السلطة في السياق الاستعماري. لم يتعرض الباحث مثلاً لأدبيات الدراسات المكانية لفهم قيمة الأرض (موضوع الكتاب) بوصفها "فضاء" Space، وكيف تعمل علاقات السلطة في إنتاج الفضاء وتشكيله والسيطرة عليه. هذا فضلاً عن الإرث الفوكوي حول فعل السلطة في المكان عبر استراتيجيات المراقبة وتصنيف المكان وتقطيعه، وهذا إرث نظري قد تطور إمبيريقياً في السياق الفلسطيني بصورة ملحوظة، مقارنةً بأي سياق آخر في العالم<sup>(9)</sup>. وهنا يمكن إضافة ملاحظة أن المؤلف لم يجر نقاشاً أفقيًا مع ما أنجز عربيًا في مرتكزاته النظرية، ويتضح هذا الأمر في مدخل "الموت الاجتماعي"، وتحديدًا الكتابات الفلسطينية المتأخرة<sup>(10)</sup>. كما يُمكن وصف مسح المؤلف للأدبيات العربية السابقة بالانتقائية؛ إذ واكب جزئيًا (في الفصل الثاني والثالث

(9) يمكن الرجوع على سبيل المثال إلى الأبحاث المنجزة عن السياسات الحيوية والمراقبة والحدود ودار الفصل العنصري في السياق الفلسطيني. منها على سبيل المثال لا الحصر:

Umut Ozguc, "Beyond the Panopticon: The Separation Wall and Paradoxical Nature of Israeli Security Imagination," Paper Presented at the Australian Political Studies Association Conference, "Connected Globe: Conflicting Worlds," University of Melbourne, Melbourne, 27-29/9/2010.

(10) مثلاً، عالج إسماعيل ناشف مسألة "العودة" لدى الجماعة الفلسطينية بوصفها فعلاً ينطلق من غريزة الحياة واستراتيجية ضد الموت الاجتماعي، المتمثل في عجز المجتمع عن إدارة شؤون موته بنفسه. ينظر: إسماعيل ناشف، صور موت الفلسطيني (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015).

الجانب، يدي انفتاحاً أكبر وتوظيفاً أكثر للتراث المحلي حول أدبيات الهوية والذاكرة الفلسطينية، ليتتهي بإعلان صريح حول التأويل الفلاحي لاستعادة الذات الفلسطينية، بقوله: "إن استعادة الذات الفلسطينية وحضورها كانا من خلال العودة إلى الأرض وإلى ثقافتها في الفعل المقاوم التي تجسّدت في الصمود والصمود المقاوم للذين أنتجا قيمًا ثقافية تشاركية" (ص 155). واختتم كتابه بما يشبه المانيفستو، يعلنه حول التنمية المستندة إلى الأرض، بوصفها مربط الفرس في استعادة كرامة الفلسطيني المفقودة، بانتزاع وسيلة الإنتاج الأساسية وقيمتها التي تكفل الخبز والكرامة (ص 163).

## رابعاً: مناقشة نقدية

انطلاقاً من المقترح الذي قدمه المؤلف والمتمثل في دراسة الأرض في السياق الاستعماري في فلسطين، ليس باعتبارها "موضوعاً" مادياً بالمعنى الوضعي فحسب، إنما الأرض بصفتها قيمة في ذاتها والموقع الذي تحتله في الصراع الاستعماري أيضاً، فإن تقديم موضوع البحث - في رأيي - يمثل أوضح عناصر القوة في الطرح الذي قدّمه بلال عوض سلامة في كتابه. هذا إضافة إلى شمولية المقاربة النظرية التي تعالج موضوع ممارسات السيطرة على الأرض، ضمن سياق كلي يحتاج إلى نقد جذري للشرط الاستعماري بكلّيته، وليس قراءةً جزئيةً للممارسات والاستراتيجيات. لكن ذلك يأخذ قوته من ناحية الاتجاه Approach نحو أشكلة موضوع البحث، وليس من ناحية المعالجة التحليلية، فهذه يمكن أن تكون موضوعاً لبعض التدخلات النقدية.

أول زوايا النقد هي حاجة الإطار النظري إلى



مع الماركسية، فإنه لم يَقم على نقاش صريح مع المدونة الماركسية، حيث تتطور تحليليًا كخيار نظري. وهذا يعكس التعامل مع المدخل الماركسي بوصفه معطى وملائمًا بما لا يستدعي نقاشًا لفهم حالة الأرض وانتظام الأبنية والعلاقات الاجتماعية عليها. باستثناء استناد الباحث إلى نظريات فانون الذي سلّم من هذا التعامل غير المسوّغ مع الاتجاهات النظرية، ويمكن أن يعكس ذلك تمكّن الباحث من الإرث الفانوني وتبنيّه موقفًا نقديًا ومنظورًا عامًا، وليس خيارًا نظريًا؛ الأمر الذي انعكس في هضم المؤلف هذا الإرث وتطوير حساسيات ومراسد للمشاهدة بالارتكاز عليه. مع ذلك، فإن اتكاء الباحث على فانون يفتقر إلى مواكبة الإنتاج النظري في هذا الاتجاه، الذي وإن كان فانون يمثل شعلته الباعثة، فإنه قد مضى لآفاق أعقد، على أيدي الرواد المعاصرين لمدرسة النقد الديكولونيالي الذين ربطوا بين الحداثة الرأسمالية والاستعمار<sup>(11)</sup>.

في ما يتعلق بالحالة الإمبريقية؛ وهو معنى الأرض في السياق الفلسطيني، فإن الباحث قد تعامل مع ثيمة الأرض باعتبارها كتلة صماء تنتج معنى متجانسًا وستاتيكيًا. فلا يؤثر عامل الزمن وتباين الأجيال داخل الجماعة الفلسطينية في إنتاج تنوعات من معنى الأرض، ولا يختلف هذا المفهوم والمعنى للأرض عبر تقطيعات الكيان الجماعي الفلسطيني ذي الكتل المتعددة مكانيًا

(11) يُنظر مثلاً:

Walter D. Mignolo, "Delinking: The Rhetoric of Modernity, The Logic of Coloniality, and the Grammar of De-Coloniality," *Cultural Studies*, vol. 21, no. 2-3 (2007), pp. 449-514; Nelson Maldonado-Torres, "On the Coloniality of Being: Contributions to the Development of Concepts," *Cultural Studies*, vol. 21, no. 2-3 (2007), pp. 240-270.

خاصةً) المنجز المعرفي العربي في الأدبيات التي عالجت ممارسات السيطرة الاستعمارية الإسرائيلية (وعلاقتها بالهوية والثقافة والطبقة الوسطى والتغيير الديموغرافي، وغيرها)، وارتباط تلك المتغيرات بمعادلة الصراع الاستعماري، إلا أنه لم يَبنِ على الأطروحات ذات الطبيعة النظرية التي أنتجت عربيًا، تحديدًا أطروحات الموت الاجتماعي، وآثر الارتكاز نظريًا على أدبيات باكرة نسبيًا.

على صلة بالملاحظة السابقة، يغيب النقاش الجدّي مع المدونة التي استلّ منها الباحث مركزاته النظرية، حيث يربط من خلال المقاربة بين المقولات التحليلية لتلك النظريات وخصائص السياق محلّ الدراسة، على الرغم من أنّ المحكّ منهجي يتطلّب دائمًا فحص المسوغات التي تجعل من تبني الخيار النظري دون غيره هو الأنسب لتحليل الحالة محلّ الدراسة وتفسيرها، ولا يكفي الاستناد إلى التماسك والاتساق الداخلي لبنية النظرية. واتضح هذا الأمر جليًا عند توظيف مفهوم "عقيدة الصدمة" لنعومي كلاين، فلم يوضح لنا الباحث تحليليًا كيف يمكن أن يكون السياق الفلسطيني سياقًا نيوليبراليًا مكتملاً، حيث يصلح حقلاً للمقاربة وفقًا لممارسات عقيدة الصدمة الذي اقترحته كلاين، واكتفى في المقاربة بالاستدلال على عنصر الكوارث والفظائع التي تمثل عنصرًا واحدًا في هذا المدخل.

جانب آخر، من غياب التسويغ التحليلي لدى الباحث، انعكس في توظيفه مدخل التحليل المادي الماركسي، فضلًا عن أنه يهز ويشوش تركيب الإطار النظري المقدم سابقًا، الذي يمارس ما يشبه التجاوز، إن لم يكن القطيعة

Spatial. لذلك وجدنا الباحث قد تتبع علاقات الأرض منذ فلسطين العثمانية، فالاستعمارية الانتدابية، فالصهيونية بأدوات التحليل نفسها، ثم إن حضور السياقات المكانية المختلفة (فلسطين الداخل، الضفة الغربية، قطاع غزة، وأراضي اللجوء والمهجر) التي تؤلف فضاء المجتمع الفلسطيني، يكاد لا يمثل أي متغير تحليلي في معالجة قيمة المعنى الاجتماعي للأرض. وذلك ضرب من التفكير البنيوي المغلق؛ لأن معنى الأرض تنتجه ديناميات تختلف بحسب ما تمثله الأرض في كل سياق زمنيًا ومكانيًا، حتى وإن كان الأمر داخل المجتمع نفسه.

## References

## المراجع

### العربية

- بطاطو، حنا. فلاحو سورية: أبناء وجهاتهم الريفيين الأقل شأنًا وسياساتهم. ترجمة عبد الله فاضل ورائد النقشبندي. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014.
- حباس، وليد. "الاستعمار الاستيطاني: نحو إطار نظري جديد". قضايا إسرائيلية. مج 17، العدد 66 (تموز/ يوليو 2017).
- دور المثقف في التحولات التاريخية. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.
- سلامة، بلال عوض. "الفاعل الاجتماعي: رؤية نقدية في ضوء تحديات المشهد الفلسطيني". المستقبل العربي. مج 37، العدد 431 (كانون الثاني/ يناير 2015).
- \_\_\_\_\_ . في معنى المكان: وحي من دروس المقاومة المقدسية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2023.
- ناشف، إسماعيل. صور موت الفلسطيني. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015.

### الأجنبية

- Maldonado-Torres, Nelson. "On the Coloniality of Being: Contributions to the Development of Concepts." *Cultural Studies*. vol. 21, no. 2-3 (2007).
- Mignolo, Walter D. "Delinking: The Rhetoric of Modernity, The Logic of Coloniality, and the Grammar of De-Coloniality." *Cultural Studies*. vol. 21, no. 2-3 (2007).
- Ozguc, Umut. "Beyond the Panopticon: The Separation Wall and Paradoxical Nature of Israeli Security Imagination." Paper Presented at the Australian Political Studies Association Conference. "Connected Globe: Conflicting Worlds." University of Melbourne. Melbourne, 27-29/9/2010.
- Shanin, Teodor. "Peasantry: Delineation of a Sociological Concept and a Field of Study." *European Journal of Sociology*. vol. 12, no. 2 (July 2009).